دراسة نقدية لنظرية العقلانية والمعنوية

وحيد سهرابي فر[1]

هادي صادقي[2]

تعريب

محمد عبد الله السالم

(1) أستاذ مساعد في جامعة القرآن والحديث

(2) طالب دكتوراه في الأديان في جامعة الأديان والمذاهب، وأحد خريجي الحوزة العلمية بقم المقدسة vsohrabifar@gmail.com.

ملخص البحث

طرحت نظرية العقلانية والمعنوية من قبل أحد المفكّرين المعاصرين ألا وهو الأستاذ مصطفى ملكيان منذ عام 1990م وهذه النظرية تقدم تقييم للعلاقة بين الدين التقليدي والعالم الحديث ؛ إذ، يتناول البحث العناصر المكونة للدين التقليدي والعناصر المكونة العالم الحديث، ودراسة أمكانية إتّباع الدين التقليدي في العالم الحديث، فقد سعى صاحب هذه النظرية الذي يعتقد أنّ التدين التقليدي يتعارض مع الحداثة والالتزام بكليهما لا يُعطي عملاً متوازناً، ولذلك صار يريد أثبات التعارض بين التدين التقليدي والحداثي سعى فبحث في خصائص التديّن التقليدي وكذلك بحث في خصائص الحداثة التي لا مفرّ منها. ولكل خصائص التي قد تتعارض مع الآخر، ونظراً لعدم وجود التوافق بين الخصائص الحتمية للحداثة وبين الدين التقليدي سيكون أمام الباحث خياران :

الخيار الأول: التخلّي عن الدين التقليدي نهائياً، وبالتالي سنخسر المزايا والخصائص الإيجابية التي يتوفر عليها الدين.

الخيار الثاني: قبول الدين بفهم جديد يتوافق مع الحداثة. وهذا ما يصطلح عليه ملكيان بـ(المعنوية) وهو يعتقد أنّ النظرية التي تخاطب الإنسان الحداثي تريده أن يبقى على قيمه الحداثية في الوقت الذي يستفيد من مزايا الأديان. ثم يبدأ بوصف النظرية والتطرق الى أصولها، ونقدها، ثم يتحدّث عن العلاقة بين العقلانية والمعنوية فيذكرَ أنّ واحدةً من مدّعيات هذه النظرية هي الجمع بين العقلانية

والمعنويـة، وهـي المسـألة المهمّـة التي غفلـت عنها جميـع الحضارات السـابقة وهـو يـرى أنّ الحضارات السـابقة قد ضحّت بأحـد طرفي هذه العلاقـة، ونـرى أنّ الباحـث يدعـو الـى «إن العقلانيـة والمعنويـة اليـوم ليسـت شـيئاً لا يقبـل الجمع فحسـب، بل لابدّ أن نسـعى فـي جمعهما، فنأخـذ العقلانيـة من الحداثـة، والمعنوية مـن النصوص المقدسـة» ومن نتائـج هـذا البحـث أنه يـرى أنّ نظريـة العقلانيـة والمعنوية واحـدةٌ من النظريـات المطروحـة في مجـال الديـن والحداثة، فهي من هـذه الزاوية تحظـى بالتقديـر. وفـي بلدنا باعتبـار أنّ الأكثريـة فيه هم مـن المتدينين، وهـي قـد تسـتطيع ردم الهـوة بيـن العقلانيـة والأفـكار الدينيـة لتأسّـس لمجتمـع متفاهـم قـادر على الاخذ بأسـباب العلم والعمـل دون أن يفقد قيمـه الدينية.

الكلمات المفتاحية: العقلانية، المعنوية، مصطفى ملكيان، النظرة النقدية، الدين والحداثة.

المقدمة

تتكفل نظريـة العقلانيـة والمعنويـة دراسـة العلاقـة بيـن الديـن التقليـدي والحداثـة، وتحكم بوجود التعارض بينهمـا، ولأهمّية الموضوع والمدّعيـات المهمّـة لهـذه النظرية، بذلنا جهدنـا في هـذه المقالة لتقديم عـرض مختصـر للنظريـة أعـلاه ومن ثم دراسـة هـذه المدّعيات دراسـة نقديـة، مـن خـلال محاولة تحليـل مدّعيين أساسـيين تقـوم عليهما هذه النظرية:

المدّعـى الأوّل: القطيعـة بيـن الديـن والحداثة القائم على أسـاس عناصر مـن قبيل التعـارض والتعبّـد والعقلانية.

المدّعـى الثاني: تقديـم حلّ يتمثّـل بالمعنوية، فنتعـرّض في هذه المقالـة إلـى بعض اجزاء هـذا الاتجـاه واخضاعها للنقد.

إنّ مـن أهـم التحديـات التـي تواجـه هـذه النظريـة عدم التناسـق الداخلـي لأجزائهـا، وأيضـاً فيما يرتبـط بحداثية هذه النظرية وانسـجامها المنهجـي. وبالنتيجـة لم يكتب لهـذه النظرية النجاح فـي تحقيق أهدافها بالرغـم من طرحهـا لأبحـاث جديدة وأسـئلة مفيدة.

يعتبر البحث عن الدين والحداثة واحد من أهم القضايا المطروحة في مجال الدراسات الدينية، ويكتسب هذا الموضوع أهمّيته القصوى حينما نعيش في بلد متديّن من جهة، ويواجه كل يوم أكثر من سابقه شكلاً جديداً من أشكال التعامل مع الحداثة من جهة أخرى.

وفي هذا الإطار تطرح نظرية تحت عنوان العقلانية والمعنوية من قبل أحد المفكّرين المعاصرين ألا وهو الأستاذ مصطفى ملكيان منذ عام 1990م. وإن لم تكن هذه النظرية مدوّنة بشكل كامل، لكن تقييم آثار صاحب النظرية خلال هذه المدّة يعطينا انطباعاً عن النظرية. وبالنظر لأهمية النظرية التي تتحدّى الفهم التقليدي للدين يصبح من الضروري جدّاً إخضاع هذه النظرية للتحقيق والتحليل والمراجعة النقدية.

تقرير النظرية

بهدف نقد النظرية يتطلب الأمر أولاً عرض تقرير مختصر عنها لأجل التمهيد لطرح النقد، فالنظرية بصدد تقييم العلاقة بين الدين التقليدي والعالم الحديث؛ لهذا الغرض، يتناول بالبحث العناصر المكونة للدين التقليدي والعناصر المكونة للعالم الحديث، ودراسة أمكانية إتّباع الدين التقليدي في العالم الحديث.

سؤال النظرية وجوابه

إن جميع الناس ـ من وجهة نظر صاحب النظرية ـ متدينون إلى حدٍّ كما أنهم حداثويون أيضاً[1]، وإن كان للتدين والحداثة

(1) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان 2-1؛ التقليد والعلمانية: 268.

مراتب إلا أنهما متوفران عند جميع الأشخاص بنسبٍ متفاوتة قلة وكثرة، والسؤال الأساس الذي يشرع فيه صاحب النظرية عمله هو: هل ثمة توافق بين التديّن والحداثة؟ وبعبارة أخرى هل يتصرّف الأشخاص الذين جمعوا بين التديّن والحداثة بشكل متوازن ومنطقي أو لا؟.

وفي مقام الإجابة على هذا التساؤل يعتقد صاحب النظرية أنّ التدين التقليدي يتعارض مع الحداثة والإلتزام بكليهما لا يُعطي عملاً متوازناً[1] وبهدف أثبات التعارض بين التدين التقليدي والحداثي سعى صاحب النظرية إلى بحث خصائص التديّن التقليدي وكذلك بحث خصائص الحداثة التي لا مفرّ منها.

الخصوصية الأولى: العقلانية في مقابل التعبّد

واحدة من خصائص الإنسان الحداثي، عقلانيته التي تبرز في منحاه الإستدلالي، ويراد من المنحى الإستدلالي الإلتزام بكل مدعى بحدود مقبولية دليله، وبعبارة أخرى لاجل قبول أي اعتقاد لابد أن تكون لنا حجّة مقبولة لصالح ذلك الإعتقاد؛ بحيث إذا ما سُئلنا بأي دليل في نظركم يكون ألف = ب، فيأتي الجواب: لأن؛ ألف = ج من جهة، ومن جهة أخرى ج = ب فالنتيجة ألف = ب.

يعتقد ملكيان بتعارض خصائص عقلانية الإنسان المتحضّر مع خصوصية التعبّد الموجودة في الأديان التقليدية، وفي نظره لايمكن فرض دين تقليدي بلا تعبّد؛ ففي كل دين تقليدي على المتدين

(1) مصطفى ملكيان، طريق إلى التحرر: 364.

أن يتعبّد بتعاليم مؤسّس الدين، فالتعبّد بنظر ملكيان هو بمعنى أن نقبل معتقد بيّنه شخص (ألف) ولا يوجد لدينا برهان لصالح ذلك المعتقد[1].

بالنظر إلى أن الإنسان المتحضّر يعتقد بما قرره الدليل فلا يمكن أن تكون لديه معتقدات لا دليل عليها، وكان قبولها لمجرد كونها قد صدرت عن شخص معين.

الخصائص الأخرى[2]

المسألة الأخرى هي أن الإنسان الحديث لاينظر إلى التأريخ نظرة قطعية، بخلاف الدين التقليدي فإنه قائم على قطعية الوقائع التأريخية[3]. والخصوصية الأخرى هي اللحظة الراهنة (الحداثة آنية - مكانية)، أي علمانية الإنسان الحديث الذي يريد الوصول إلى نتيجة جزاء الأعمال في هذا العالم.

الخصوصية الأخرى التي يطرحها صاحب النظرية: هي أن الأبحاث الميتافيزيقية من وجهة نظر الإنسان الحديث ثقيلة جدّاً وغير قابلة للإثبات وقد فقدت اعتبارها. وفي المقابل أنّ كثيراً من التعاليم الدينية قائمة على هكذا ميتافيزيقيا؛ ومن الطبيعي مع عدم

---

(1) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان 2-1؛ التقليد والعلمانية: 274-275.

(2) على اعتبار أننا بينا هذه الخصائص بالتفصيل في مقال لنا تحت عنوان « تحليل لنظرية العقلانية والمعنوية» في العدد الثاني لمجلة دراسات الأديان، لهذا السبب نتعرض لهذه الخصائص بنحو الإختصار ونوكل التفصيل إلى مراجعة تلك المقالة.

(3) المصدر السابق: 275-277.

اعتبارية هكذا ميتافيزيقيا فإن المعتقدات القائمة على أساسها أيضاً بدورها ستواجه تحدّياً[1].

النكتة الأخرى التي يؤكدها صاحب النظرية خصوصية القداسة عند العالم الحديث التي تعني لا أحد فوق التشكيك والكل متساوٍ من هذه الجهة وهذه الخصوصية تتعارض مع وجود عنصر التقديس في الأديان التي تعتبر أشخاصاً أو نصوصاً فوق التشكيك[2].

وآخر خصوصية للعالم الحديث تتعارض مع الدين التقليدي من وجهة نظر صاحب النظرية، هي أن تعاليم الأديان التقليدية متأثرة بالظروف المناطقية والتأريخية، والحال أن الإنسان الحديث يتطلع للقيم العالمية ويرفض جعل التعاليم الجغرافية أساساً لحركة العالم[3].

نظراً لعدم وجود التوافق بين الخصائص الحتمية للحداثة وبين الدين التقليدي سيكون أمامنا خيارين:

الخيار الأول: التخلي عن الدين التقليدي نهائياً، وبالتالي سنخسر المزايا والخصائص الإيجابية التي يتوفر عليها الدين.

الخيار الثاني: قبول الدين بفهم جديد يتوافق مع الحداثة. وهذا ما يصطلح عليه ملكيان بـ المعنوية[4].

والجدير بالملاحظة هو، تعتقد هذه النظرية أن المخاطب بها هو الإنسان الحداثي بحيث يبقى على قيمه الحداثية في الوقت الذي

(1) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان 2-1؛ التقليد والعلمانية: 280-283.

(2) المصدر السابق: 283-285.

(3) المصدر السابق: 285-286.

(4) المصدر السابق: 269.

دراسة نقدية لنظرية العقلانية

يستفيد من مزايا الأديان؛ وعليه مع الأخذ بنظر الأعتبار محورية خصائص الحداثة التي لا محيص عنها إلا أنها قد وضعت نفسها في قطيعة مع الدين التقليدي. نعم يوجد اتجاه بديل وهو اصلاح القيم الحداثية على أساس القيم الدينية، وفي هذه الحالة سيكون المحور هو التعاليم الدينية، وتقاس قيم الحداثة على أساس المعايير الدينية، ولكن مفروض النظرية هو أصالة الحداثة.

منهج النظرية

وبعد تبني صاحب النظرية رفض فكرة الفهم التقليدي للدين يسعى لعرض اتجاه جديد يتبنى فيه فهماً جديداً للدين يتماشى مع تحولات العالم الحديث، ومن وجهة نظر صاحب النظرية فأن قبول المعتقدات وأعطائها قيمة أمر مرهون بمتانة دليلها وإذا كان هناك مدعى عليه شواهد تخالفه فسيواجه بالرفض حينئذٍ.

وقبل طرح النظرية نتعرض للتقسيم الذي طرحه صاحبها في هذا المجال.

بشكل عام يمكن تقسيم القضايا على أساس تحليل عقلاني إلى ثلاث فئات:

القضايا «العقلانية» والقضايا «المخالفة للعقل» والقضايا «غير العقلانية». والقضايا العقلانية هي القضايا التي أدركها العقل بشكل صحيح وقبلها. والقضايا المخالفة للعقل هي التي أكتشف العقل بطلانها وحكم بفسادها. وأخيراً القضايا غير العقلانية هي التي لم يكتشف العقل صحتها ولا بطلانها بشكل قطعي.

أن وظيفتنا تجاه القضايا التي يدركها العقل ـ في نظر ملكيان ـ تتمثّل بقبول تلك القضايا، كما أن وظيفتنا في مورد القضايا التي يرفضها العقل هي أنكارها ورفضها. وأما القضايا غير العقلانية فهي على صنفين: قضايا فيها جانب راجح وعلى سبيل المثال (ألف، ب الوجود) راجحة على (ألف، ب العدم). والقضايا غير العقلانية التي ليس لها رجحان معرفي من قبيل (ألف، ب الوجود) مع (ألف، ب العدم)، متساويان من الناحية المعرفية.

ويعتقد ملكيان أنه في القضايا غير العقلانية الراجحة لابد من الأخذ بالجانب الراجح منها. أما في مورد القضايا غير العقلانية التي ليس لها رجحان معرفي وفي الواقع نحن في خلأ معرفي من جهتها، فيعتقد ملكيان انه لابد من الإنتقال أو التوجه من المعيار المعرفي إلى المعيار العملي ونأخذ بنظر الإعتبار أي واحدة من (ألف، ب الوجود) أو (ألف، ب العدم)، ما هو أكثر نفعاً في مقام العمل وما يوجب تقليل الألم وجلب الرضا، ويمنح للحياة معنى، ومن هذا القبيل[1] ومع اتباع هكذا توجه فإن المعتقدات التي تتكون لدى شخص تكون عقلانية ومن هذا المنطلق تتوافق مع خصائص الإنسان المتحضّر.

وهذه المسألة مهمّة في فهم النظرية لأن مصدر القلق الرئيس لصاحب النظرية هو الحدّ من آلام الإنسانية، وبصدد قضايا تنتج هذا الأمر، فمن وجهة نظره أن عمل الدين التقليدي في عالم التقليد كونه يوجب التقليل من آلام البشر، أما من زاوية كونه ديناً تقليدياً في عصر

(1) مصطفى ملكيان، المؤائمة بين المعنوية والحداثة: 16.

الحداثة فهو غير مقبول ولا يمكن أن يحمل خاصية الحدّ من معاناة البشرية[1]. وعلى هذا الأساس وبهذه المنهجية التي يعرضها ملكيان فإنها ستطال جميع تعاليم الأديان وحتى الإدراكات البشرية، بحيث يمكن باتباع هذا النهج الحصول على جميع المعتقدات العقلانية التي تكون مقبولة لدى الإنسان الحداثي، وذلك لأجل التقليل من آلام البشرية[2] وأيضاً باتباع هكذا نهج يكون الجمع بين العقلانية والمعنوية أمراً متاحاً، وهذا ما يقلق صاحب النظرية ويطرحه بشكل جاد، فيعتقد أن جميع الحضارات السابقة قد غفلت عنها فادّى بهم إلى التضحية بالمعنوية على حساب العقلانية أو بالعكس[3].

أصول النظرية

لنظرية العقلانية ثلاثة أصول طرحها صاحب النظرية على أنها تشكل أصول المعنوية: يراد بالمعنوية اعتقاد الشخص بأن العالم من حيث المعرفة الوجودية ليس مؤطّراً بما تقرره قوانين الفيزياء

---

(1) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان 1-2؛ التقليد والعلمانية: 314.

(2) يمكن طرح خلاصة فكرة ملكيان في هذا المجال في عدة جملات مشهورة قد بينها، كما يلي: انا لست قلقاً على التقاليد، ولست قلقاً على الحداثة، ولست قلقاً على الثقافة، ولست قلقاً لأي أمر انتزاعي من هذا القبيل، انما أنا قلق فقط على البشرية المكونة من اللحم والدم، التي تأتي وتذهب وهي تصارع الآلام فلنسعى أن نواجه البشرية أو نصارحها بالحقيقة وأن يطلعوا على مزيد من الحقائق، مضافاً لذلك التقليل من معاناتهم وآلامهم بل أن ينزعوا نحو الإستزادة من فعل الخير والإحسان ولأجل تحقق هذه الأهداف الثلاثة يمكن الإستفادة من كل ما هو نافع، بدءاً من الدين وحتى العلم والفلسفة والفن والأدب وكل الإنجازات البشرية الأخرى. انظر: ملكيان، الإشتياق والهجران: 119.

(3) مصطفى ملكيان، الإشتياق والهجران: 418 .

والكيمياء والبيولوجيا، كما أنه بلحاظ الرؤية المعرفية (الإبستمولوجية) لايتحدد العالم بما تُدركه عقول البشر، وهناك حقائق في العالم تقع خارج عن إدراك العقل البشري طولاً وعرضاً، وأيضاً بلحاظ علم النفس لاتكون نفسية شخص معين هي المعيار، وعلى الإنسان السعي للوصول إلى حالة نفسية مرضية. وكل إنسان يعترف بهذه الأفكار الثلاثة، معرفة الوجود، علم المعرفة، وعلم النفس، فيمكن تسميته بالإنسان المعنوي[1].

نقد النظرية

لنظرية العقلانية والمعنوية أبعاداً مختلفة، ولا شك أن مراجعة جميع أبعادها في مقالة واحدة غير ممكن، وعليه نقتصر في هذا المقال على بحث بعض مدعيات هذه النظرية.

لاتعارض بين التعبد والعقلانية

الحجر الأساس لكلام صاحب النظرية هو التعارض بين الدين التقليدي والحداثة، لأن قوام التديّن التقليدي بالتعبد بينما جوهر الحداثة هو العقلانية، وهاتان المقولتان متعارضتان[2] والتعبد بمعنى قبول الإعتقاد من جهة كون هذا الإعتقاد صادراً عن (س) أي الشخص الذي لديه سلطة، بحيث لو سألنا من شخص متعبد لماذا تعتقد بالقضية (أ) فبدل أن يستدل، سيجيب لأنها صدرت عن (س) من الناس.

والتعبّد في نظر ملكيان ليس شيئاً سوى إخماد لغريزة حب

(1) مصطفى ملكيان، في البحث عن العقلانية والمعنوية: 80.

(2) مصطفى، ملكيان، المؤائمة بين المعنوية والحداثة: 16.

الإطلاع وتعطيلاً للمسيرة العقلانية. فالشخص المتعبّد يُضحي بقوة البحث والتنقيب لديه وتساؤلاته العقلية وسعيه وراء العلل إلى محلٍ، أي يفديها إلى ذلك الموجود المقدّس وإلى ما يواجهه من كلامٍ مسلم لايقبل التشكيك[1].

في نظر ملكيان هناك حالات موجودة من التعبد لاتتنافى مع العقلانية ويمكن التعبد بها: «بقي شيء ينبغي عدم اغفاله وهو لو كان نفس التعبد مبرراً بدليل عقلي حاسم فلا خشية، ولكن اغلب الحالات ليست هكذا[2] كما لو أنّ عرفاً يُشير إلى شخصٍ متخصص في فرع من العلوم فيمكن مراجعته في الأمور التي تخصّص بها، فمثلا يعتبر الفيزيائيون أن انشتاين متخصص فيزيائي فلا إشكال من الرجوع إليه بعدهِ رجوعاً للمتخصص.

الحالة الأخرى التي تجوّز الرجوع إلى الشخص هي مراجعة سابقة ذلك الشخص فنرى إذا كان هناك اشخاص قد اتبعوه وتوفقوا في أمورهم فنحن أيضا نتبعه. والحالة الأخرى هي عند الرجوع إلى الشخص نجد أن نظرياته مفيدة وعملية فنستمر بمتابعته[3].

مع ملاحظة هذه البيانات السالفة، هل يتعارض التعبّد مع العقلانية؟ وهل ما يحصل في الدين التقليدي وفقاً للتعريف المذكور يسمى تعبّداً.

---

(1) مصطفى ملكيان، طريق إلى التحرر: 367.

(2) طبعاً، في نظر ملكيان، أن التعبد المستند إلى الدليل ليس تعبداً أساساً، أنظر: مصطفى ملكيان، الإنسان التقليدي، الإنسان الحداثي ومسألة التعبد: 53-54.

(3) المصدر السابق: 53-54.

والإشـكال الرئيـس الموجـود فـي هـذا المجـال هـو عـدم صحـة التقسـيم الذي يطرحه ملكيـان[1]. لأنّ مدعى النظريـة يرتكز على الإعتقاد بـأنّ قضيـة (ألـف) من جهة كونها صـادرةً عن شـخص (س) تعتبر تعبّداً ولا مـراء فـي أنّ هـذا التعبّـد لايتفـق مـع العقلانيـة؛ هـذا مع أنـه لو كان قـول (س) مقبـولاً لكونـه مدعومـاً بالدليـل فهذا الأمـر بناءً علـى ما قرره هـو لايكـون تعبّـداً، ومن الطبيعـي لاينبغـي أن يكون بينه وبيـن العقلانية تعارضـاً. وبعبـارة أخـرى، لابد من التفريق بيـن التعبد القائـم على الدليل والتعبـد الأعمـى، وعـدم اصـدار حكـم كلـي غير عقلانـي علـى كليهما فالتعبّـد الـذي يكـون برهانيـاً لايتنافـى مع العقلانيـة أبداً.

والعجيب أنه هو نفسه يُذعن لهذه الحقيقة:

وهـي مـن الناحيـة المفهوميـة والنظريـة التعبيـر بالتعبـد البرهانـي إنمـا هـو تعبيـر باردفكسـيكال؛ لأنـه لـو أصبح التعبّـد مسـتدلاً فلجهة كونـه برهانيـاً لايمكـن تسـميته بالتعبّـد فلـو ثبـت أنّ كل مـا قاله (س) فهـو صحيـح أو كل مـا قالـه (س) ففيـه مصلحـة، فمـن الآن فصاعـداً يكـون قبولـي لـكلام (س) ليـس تعبّـداً، لأنـه برهانـي حينئـذٍ[2].

والسـؤال الـذي يتبـادر إلـى الذهـن فـي هذا السـياق، أساسـاً هل هنـاك حالـة للتعبّـد موجـودة فـي التديـن التقليـدي غيـر ماذكـر أعلاه؟ ألـم تكـن الخطـوة الأولـى فـي الإيمـان الدينـي هـي التعقّـل، ومـن ثم بعـد الإعتـراف بالمدعيـات الأولية للديـن من قبيل وجـود الله، وضرورة النبـوة، ونبـوة النبـي، وعصمتـه، وغيرهـا، تصل النوبـة إلـى التعبّد؟ ومع الأخـذ بنظـر الإعتبـار القضايـا المطروحة، تجدر الإشـارة إلـى أنّ التديّن

(1) أنظر: فنائي، أبو القاسم، «العلاقة بين الدين والحداثة»: 96.

(2) مصطفى ملكيان، الاشتياق والهجران: 170.

التقليدي لايكون تعبّداً محضاً أصلاً، وبطبيعة الحال لا يتعارض مع العقلانية بل – وكما أشار ملكيان – حينما يكون هناك برهان على صحّة المدعيات الشخصية (للنبي) فقبول كلامه لا يُسمى تعبّداً؛ هذا علاوة إلى أنه في الدين الإسلامي وخاصّةً من وجهة نظر الشيعة، أنّ العقل مع كونه الخطوة الأولى للتدين ومقدّم على التعبّد، فبعد قبول الدين، يحتل العقل أول مصادر معرفة الدين ويلعب دوراً بارزاً في فهم النصوص الدينية وتفسيرها[1].

والمسألة الأخرى التي تحظى باهتمام في هذا الصدد، قد يعتقد بعض الدارسين أن البراهين التي تثبت وجود الله أو أدلة إثبات ضرورة النبي أو الأدلة التأريخية لإثبات مدعيات الدين التقليدي، ليست أدلة كافية، وبناءً على هذا أساساً لايوجد دليل يُسوغ تعبّد المتدينين وضرورة توافقه وتكييفه مع العقلانية.

وفي مقام جواب ذلك، من الجدير التعرض إلى مطلبين:

أولاً: وفقاً لمنهج النظرية لايرتبط قبول الإعتقادات بضرورة أن تكون عندنا أدلة قاطعة لصالحها، بل إذا كانت الأدلة الموجودة توجب رجحان المعرفة أيضاً يكون هذا مجوزاً لقبول الإعتقاد، فالأدلة التي أقيمت من قبل المتدينين التي تدل على وجود الله ونبوة شخص معيّن وغيرها حتى لو لم تكن مدعياتها ثابتة بنحو القطع واليقين فهي على الأقل توجب رجحان المعرفة، وطبقاً لمنهج النظرية لابد من التسليم بهكذا اعتقادات، وحينما يتم قبول هكذا معتقدات على أساس عقلاني، فإن تبعية هكذا شخص لا تتناقض وعقلانية الإنسان

(1) إن الحديث الذي يدور اليوم حول مكانة العقل في فهم الدين وأي مكانة لابد أن يحتلها، موكول إلى مجال آخر.

الحداثـي المتحضّر.

ثانيـاً: مـا يمكـن طرحـه فـي الإجابة علـى مثل هكـذا ادعـاء، أنه علـى فـرض أن نأخـذ بعيـن الإعتبـار، أن أدلـة المتدينيـن غيـر قـادرة علـى أثبـات حتـى الرجحان المعرفـي بالرغم مـن الموارد التي اسـتثناها ملكيـان مـن التعبّد، مـع ذلك لا يـزال اتباع الديـن التقليدي قائمـاً؛ فعلى سـبيل المثـال، هـل في عـرف الإلهييـن، النبي الخاتـم، لا يُعتـرف بنبوته.

مـن قبيـل انشـتاين بيـن الفيزيائييـن، أفـلا يمكـن العثـور طـول التأريـخ علـى أتبـاع لنبـي الإسـلام كان اتّباعهـم لـه لأنهـم توصلـوا إلى نتائـج جيّـدة جـراء اتّباعهـم، كالحيـاة المعنويـة، ونمـط الحيـاة، والحياة الأخلاقيـة؟ فلمـاذا مـع هـذه السـوابق الجيّـدة لا نتبـع الديـن التقليدي؟ فـإن المتابعـة طبق قـول صاحب النظرية بوصفها مسـتندة لهكـذا براهين فـلا تكـون من التعبّـد حينئـذٍ أو لا تكون مـن التعبد الـذي يتعارض مع العقلانيـة البتّة.

العلاقة بين العقلانية والمعنوية

وكمـا ذَكـر أن واحـدة مـن مدعيات هـذه النظرية هـي الجمع بين العقلانيـة والمعنويـة، وهـي المسـألة المهمّـة التي غفلـت عنهـا جميـع الحضـارات السـابقة بنظـر ملكيـان حيـث يقول:

إنّ الطريـق إلـى التحـرر هـو الجمـع بيـن العقلانيـة والمعنويـة. وأعتقـد أنـه لـم تكـن أي مـن الحضـارات السـابقة تشـاركنا فـي هـذا المشـروع؛ لأن بعضهـا قـد ضحـى بالعقلانية لأجـل المعنويـة كالحضارة الهنديـة. وبعضهـا ضحـى بالمعنوية لأجـل العقلانيـة كالحضـارة الغربية الحديثـة. وفـي اعتقـادي إذا كان هنـاك مسـار إلـى التحـرر لا ينبغـي أن

نضحـي باحدهمـا على حسـاب الآخـر[1].

وفي هذا المدعى عدّة نقاط مهمّة جديرة بالإهتمام:

النقطة الأولـى: أن الحكم على جميع الحضارات السـابقة بالخطأ، والجميـع قـد ضحـى بالعقلانيـة علـى حسـاب المعنويـة أو بالعكس، ما هـو إلا ادعـاء يحتـاج إلـى تحقيـق تأريخي شـامل وبنحو عـام لايمكن التكهـن عن هكـذا ادعاء.

النقطـة الثانيـة: مـا هـي علاقـة العقلانيـة والمعنويـة مـع بعضهما فـي هـذه النظريـة؟ إذا كانـت المعنوية وليـدة العقلانيـة ولا تفكيك بينها وبيـن العقلانيـة فمـا هـو أسـاس القلـق الـذي تبتنـي عليـه محـاولات الجمـع بينهمـا؛ وبعبـارة أخرى إذا كانت المعنوية ناشـئة وعلـى وئام تام مـع العقلانيـة فليسـت هنـاك حاجة لإيقـاع التصالـح بينهما؛ وفـي الواقع أساسـاً لا معنـى للتعبيـر بالجمـع بينهما[2].

النقطة الثالثـة: يعتقد صاحب النظرية المحتـرم ان هناك حضارات قـد تأخـرت عـن المعنويـة بسـبب العقلانيـة المفرطـة، وهـذا مـا أدّى بمجتمعاتهـا أن تتحـول إلـى مجتمعـات فوضوية.

والسـؤال المطـروح حاليـاً إذا كانـت غلبة العقلانية فـي حضارة ما تـؤدي بتلـك الحضـارة إلـى المجهـول وسـتواجه تحدّيـات فـإن نظرية العقلانيـة والمعنويـة مـا هـي إلا تأكيداً بليغاً عـن العقلانية؛ وهـذا تطبيق للحـد الأقصـى مـن معناهـا. إذاً فكيـف يمكن تجـاوز هذه الإشـكالية؟ وبعبـارة أخـرى، فـإن المشـكلة الدائـرة فـي المجتمعـات العقلانيـة إنما

(1) مصطفى ملكيان، الاشتياق والهجران: 418.

(2) أنظـر: هاشـمي، محمـد منصـور، المفكريـن المُحدَثيـن؛ التنويـر الدينـي مـن شـريعتي إلـى ملكيـان: 272.

ظهـرت بسـبب التركيـز المفـرط علـى العقلانيـة بحسـب زعـم صاحب النظريـة، فنفـس انعـدام المعنويـة يمكـن أن يواجـه نظريـة العقلانيـة والمعنويـة لأن كلاهمـا يؤكـد علـى الحـد الأقصـى فـي الإسـتفادة مـن عنصـر العقلانية.

العقلانية وعوامل أخرى

الركـن الأسـاس الـذي تقـوم عليـه النظريـة، هـو العقلانيـة، إلـى الحـد الـذي يعتقد صاحـب النظرية بتقديـم العقلانية علـى المعنوية وأنّ المعنويـة وليـدة العقلانية[1] وما تركيـز المُنظِّر علـى العقلانية إلا بوصفها السـمة البـارزة للإنسـان الحديـث، ومن ثـم هي مـن العناصر الأساسـية للنظريـة، وهـذا لايخفـى على مـن طالع آثـار ملكيان.

إنّ هـذا التركيـز البالـغ إنمـا ينجم عنه طـرح تسـاؤلات مع الأخذ بنظـر الإعتبـار وجهـات نظر أخـرى لصاحـب النظرية. في نظـر ملكيان، إن إيمـان النـاس بالديـن يتأثـر بأنمـاط العوامـل النفسـية إلى حـدٍّ كبير: «ومـا أسـتطيع قولـه بالتأكيد كل نمط نفسـي (سـيكولوجي) ينجذب إلى واحـد أو اثنيـن أو أكثـر مـن الأديـان والمذاهـب. فـإن الطريقـة البوذية هي الإسـلوب الأمثـل لأنماط معينة من السـيكولوجية، كمـا أن الطقوس الكونفوشيوسـية والمسـيحية المعاصرة لنمط آخر، ومسـيحية المسيحيين الأوائـل لسـنخ آخر، وهكذا الإسـلام والمسـلمون الأوائل، والمسـيحيوّن الصليبيـوّن لأنمـاط أخـرى مـن لوائـح داو. كمـا أن الطقوس الهندوسـية فهـي لسـنخ آخر مـن تلك الأنمـاط[2].

(1) فنائي أبو القاسم، «العلاقة بين الدين والحداثة»: 16.

(2) مصطفى ملكيان، طريق إلى التحرر: 239-240 .

دراسة نقدية لنظرية العقلانية

ولايتحدد تأثير العامل النفسي بأختيار الدين فحسب بل هذه المسألة مطروحة حتى في أصل الإيمان: «فيعتقد علماء النفس عموماً، أن استعداد تحصيل الإيمان عند بعض الأشخاص أقل بينما عند أشخاص آخرين أكثر؛ فلا ينبغي أن نتوقع حصول الإيمان عند جميع الناس بمستوى واحد»[1].

ويخلص إلى القول: « لا أشك في أنّ ثمة أصنافاً سيكولوجية تمتلك مواهب تكون أقل قابلية للإيمان من غيرها، هؤلاء الأشخاص إذا كان لهم الحد الأدنى من الإيمان، فيجب أن نشكرهم عليه، ولا يصح أن نطالبهم بأكثر منه»[2].

مع ملاحظة التأثير العميق للأنماط النفسية، يمكن طرح هذا التساؤل وهو: إذا كان المعتقد الديني عقلاني تماماً، ولكن لايتطابق مع الحالة النفسية لشخص (ألف) فهل يقبل الفرد هذا الإعتقاد.

وبعبارة أخرى، عندما يكون البشر متأثرون بنوع آخر من الأنماط السيكولوجية، فالتأكيد على الحد الأقصى من العقلانية، ليس له ما يُبرره حينئذٍ.

والسؤال الآخر، فيما يرتبط بموضوع العقلانية؛ هل البشر يملكون عقلانية أصيلة؟ وبعبارة أخرى هل قدرة البشر على التعقل هي بنفسها قوة غير متأثرة بظروف أخرى؟ وفي نظر ملكيان: أن العقلانية فوق الدين ولابد من قياس عقائد الدين وأفعاله وغاياته أيضاً بميزانها، مع أنها ليست أمراً فوق التأريخ، أي بمعنى ليست

(1) مصطفى ملكيان، الإشتياق والهجران: 172.
(2) المصدر السابق: 174.

فـوق الثقافات والأشـخاص[1].

وبعبـارة أخـرى مـن وجهـة نظـر ملكيـان، يختلـف الأمر بالنسـبة للعقلانيـة مـن جهة ارتباطها بمـن يحملها، ومن جهة المرحلـة التأريخية والبقعـة الجغرافيـة التـي يعيش فيهـا الشـخص والثقافة التـي يتأثر بها.

ومـع ملاحظـة الإرتبـاط العميق الـذي لاينفك بين الديـن والثقافة، تبعـث محاولـة فصلهمـا عـن بعض على التسـاؤل؟ ومـن المسـلّم تأثير ديـن كل مجتمـع علـى ثقافتـه؛ ومـن هنـا كيـف يمكـن تجويـز تأثّـر العقلانيـة بالثقافـة، ورفـض تأثّـر العقلانيـة بالدين؟.

المسـألة الأخـرى، المطروحـة بهـذا الإتجـاه، تعريـف ملكيـان لعبـادة الصنـم:

أنّ عبـادة الصنـم، بمعنـى أن الإنسـان يعتبـر أشـياء هـي الله وهـي ليسـت الله في الواقـع، وبالتعبير الفلسـفي، «اعتبار الأمور النسـبية مطلقة» مـن قبيل، القـدرة والثروة، والشـهرة، والنجاحـات الإجتماعيـة، والمكانة الإجتماعيـة، الشـخصيات، العقائـد ومنهـا الديـن، والأصنام التـي يعبدها الإنسـان من دون الله[2].

ومـع ملاحظـة تعريف عبادة الصنم المار سـلفاً، فهل الإسـتناد إلى العقـل بالحـد الأقصـى من وجهـة نظر العقلانيـة والمعنوية يكشـف عن احـلال الأمـر النسـبي محل الأمـر المطلق؛ وبتعبيـر آخر ليس مـن عبادة الصنـم؟ خصوصـا مع الأخـذ بنظر الإعتبـار تأثـر العقل تمامـاً بالظروف الثقافيـة والجغرافيـة والتأريخيـة (مـع عـدم ضـرورة كونـه كاشـفاً عـن الواقعيـة)، ومع تأثر معتقد الإنسـان بعامل قوة يسـمى نمط سـيكولوجي.

(1) مصطفى ملكيان، طريق إلى التحرر: 275.

(2) مصطفى ملكيان، المعنوية والعقلانية حاجتنا المعاصرة: 14.

ماذا أفعل؟

يتطرق ملكيات إلى خصائص الإنسان المعنوي[1] فيقول: إن السؤال الأساس للإنسان المعنوي هو «ماذا أفعل»[2] وكل الأسئلة المختلفة المطروحة من قبيل: مِن أين جئتُ؟ وإلى أين ذاهب؟ ما هو هدف الخلقة؟ وغيرها إنما تكتسب أهميتها بمقدار ما تساعدنا في الإجابة على السؤال السابق[3].

ومن جانب آخر: يطرح صاحب النظرية فكرة العلمانية ويفسر هذا المصطلح على أن الإنسان الحداثي، يريد تحقق نتيجة الوعود التي تعطى له، في هذا العالم؛ وهذه المسألة لاتعني إنكار عالم الآخرة، بل هو تعليق له بنحوٍ؛ بحيث يكون أساس أحكامنا على التعاليم مترتب على ما تُعطيه من نتيجة وجودها في هذا العالم، لا النتائج التي وعدنا فيها وتتحقق في عالم الآخرة[4].

من خلال تفكيك المطلبين السابقين عن بعضهما يتبادر إلى الذهن سؤال[5] مفاده: بناءً على ما ذكر من أن أحد أهم خصائص الإنسان الحداثي، هو أهمية السؤال التالي بالنسبة له، «ماذا أفعل»، فلابد من إعطاء الأهمية لكافة الأمور التي لها تأثير على الوضع

---

(1) هناك قائمة تشتمل على أثنين وعشرين خصوصية من خصائص الإنسان المعنوي، طرحها ملكيات في مختلف آثاره، وقد أشرنا لها في الفصل الثاني من رسالتنا في الماجستير تحت عنوان «نقد وتحليل لنظرية العقلانية والمعنوية» ولمن يريد الرسالة يجدها في مكتبة جامعة الأديان والمذاهب.

(2) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان: 319.

(3) مصطفى ملكيان، الدين والمعنوية والعقلانية.

(4) مصطفى ملكيان، المعنوية جوهر الأديان: 278-280.

(5) أنظر: نصري، عبد الله، الحوار المعاصر: 245.

المعيشـي للإنسـان، هـذا فـي الوقت الـذي واحدة مـن أهم المسـائل – إن لـم نقـل أكثـر أهميـة – لها تأثيـر على نمـط حياتنا ولها تأثير حاسـم علـى سـؤالنا «مـاذا أفعـل؟» هـو وجود الآخـره وعـدم وجودهـا. وتأثير هـذه المسـألة رائـع جدّاً بحيـث مع فرضية وجـود عالم الآخرة سـتتبدل حيـاة الفـرد تمامـاً عن صـورة فرضيـة عدم وجـود عالـم الآخرة.

وفـي هاتيـن الحالتيـن، أن قضايا من قبيـل المعايير، معنـى الحياة، الأهـداف والأفـكار وغيرهـا سـتتغير تمامـاً وعلـى هـذا الأسـاس فـإن سـؤال «مـاذا أفعـل» إذا كان يحظـى بأهميـة بالنسـبة للإنسـان المعنوي، فـلا يمكـن تعليـق الآخـرة؛ بـل لابد مـن تحديـد تكليفه تجاههـا، حتى يحصـل علـى جـواب واضح علـى سـؤال «مـاذا أفعل».

منهج النظرية وأصولها

كما تبين سابقاً أن نظرية العقلانية والمعنوية لها أصول ثلاثة.

الأصـل الأول، الرؤيـة الكونيـة. الأصـل الثانـي، نظريـة المعرفـة. والأصـل الثالـث، علـم النفـس.

وعلـى أسـاس الأصـل الثاني، هنـاك أمور فـي الكون يطلـق عليها أسـم أسـرار الوجـود، فـإن النـاس ما دامـوا علـى طبيعتهم البشـرية فهم غيـر قادرين علـى فهمها[1].

والسـؤال الـذي يمكـن طرحـه فـي موضـوع الأصليـن هـو: هـل يمكـن إثبـات هذيـن الأصلين مـع الأخـذ بنظر الإعتبـار المنهجيـة التي طرحهـا صاحـب النظريـة؟ وبعبـارة أخـرى، هـل يوجـد دليـل حاسـم لإثبـات وجـود عالـم مـا وراء المـادّة، وأيضـاً يثبـت وجـود السـرّ؟ أو

(1) مصطفى ملكيان، في البحث عن العقلانية والمعنوية: 80.

يوجِد الرجحان المعرفي؟ وإذا كانت هناك أدلة موجودة ومع ملاحظة إصرار صاحب النظرية على العقلانية والنزعة الإستدالية، كان الأجدر به عرض تلك الأدلة.

ويمكن أن يُقال طبقا لمنهجية صاحب النظرية، ففي القضايا غير العقلانية التي تكون فيها طرفي القضية متساوية، نرجع إلى مقام العمل بمعيار النفع (براغماتية)، وأما الأصول الثلاثة السابقة مع كونها توجد خلاءً معرفياً لكنها تم الإعتراف بها باعتبار النفع في مقام العمل. وفي مقام الإجابة على هذا الكلام يمكن طرح نقدٍ أخر سنبينه فيما بعد.

منهج النظرية والخلاء المعرفي

من البيان المتقدم، وفقاً لمنهج النظرية، نتجه في حالة الخلاء المعرفي إلى معايير واقعية ونافعة في مقام العمل وهي التي تكون معيار لقبول القضايا أو رفضها، ولأجل تحليل هذا الإتجاه أكثر يكون بيان المثال التالي نافعاً:

لو كان (س) من الناس يعتقد بوجود سيارة في المنظومة الشمسية لم تُكتشف حتى الآن بل ولايمكن أن تكتشف أصلاً؛ لعدم كونها مادية حتى يتسنى كشفها بواسطة علماء العلوم الطبيعية. وتعيش في هذه السيارة موجودات يرمز لها بـ (x1)تمتلك قدرات خاصة. يعتقد (س) بوجود(x1) في تلك السيارة يسافر سنوياً لمدة يوم واحد إلى الكرة الأرضية ويساعده (س) في أعماله وفي ذلك اليوم يتم إنجاز جميع الأمور على وفق ما يريده (س).

وهذا الإيمان طبقاً للتقسيم الذي اعتمدته النظرية يكون من

القضايا غير العقلانية؛ لأنها قضايا ليست برهانية بامكان النظرية اثباتها أو إنكارها؛ هذا مع أن هذا الإيمان من الناحية العملية نافع ويبعث على الأمل والدافع عند (س). وفقاً لمقترح النظرية أن على (س) الإلتزام بهذا الإيمان؛ لأنه وإن لم يكن قادراً معرفياً على إثبات أو نفي ذلك إلا أن هذا الإيمان يكون بالنسبة إليه نافعاً. وهذا الإيمان إنما يكون مفيداً عندما نفترض أن (x1) ينزل إلى الأرض لمدة عشرة أيام في السنة لمساعدة (س). ففي هذه الحالة يكون الأمل الذي يعطيه هذا الإيمان أكثر وتكون وظيفة (س) تجاه الإيمان أكثر.

إن المثال السابق بصدد إيصال هذه الفكرة، وهي أن المنهجية المعتمدة في النظرية تفتح الطريق عملياً لقبول كل أعتقاد غير قابل للإلغاء أي فيه احتمال النفع، ولم تقدّم لنا المعيار الكافي لقبول الاعتقادات أو ردها.

الإلتقاط والمعنى

من المسائل التي ينبغي أخذها بعين النظر في موضوع نظرية العقلانية والمعنوية، مسألة الإلتقاط. من وجهة نظر صاحب النظرية المحترم، لابد من سلوك كل طريق ممكن من أجل التقليل من معاناة البشرية وآلامها؛ والمهم هو أن يساهم في التقليل من معاناة البشرية، فيقول في حديث له مشهور:

أنا لست قلقاً على التقليد، ولا قلقاً على الحداثة، ولا قلقاً على الحضارة، ولا قلقاً على الثقافة، ولست قلقاً على أي أمرٍ انتزاعي من هذا القبيل. انا فقط قلق على من يأت من الكائنات البشرية بلحمهم ودمهم، يتألمون ويذهبون، فلنسعَ لإن يواجه الناس الحقيقة أكثر

ويطلعوا على الحقائق أكثر، وعلاوة على ذلك التقليل من آلامهم ومعاناتهم، بل ليميلوا أكثر الى الإحسان والعمل الحسن، ولتحقيق هذه الأهداف الثلاثة لابد أن يتم الإستفادة من كل ما هو نافع أكثر بدءاً من الدين وحتى العلم والفلسفة والفن واللغة والأدب وجميع النتاجات البشرية الأخرى[1].

ويقول في موضع آخر: «إن العقلانية والمعنوية اليوم ليست شيئاً لايقبل الجمع فحسب، بل لابد أن نسعى في جمعهما، فنأخذ العقلانية من الحداثة، والمعنوية من النصوص المقدسة»[2].

وما يُشاهد بين طيات هذه النظرية هو أن الإنسان المعنوي يأخذ كل أمر مفيد من أي دين ومذهب كان. إن أخذ المطالب يكون بدءاً من المصادر المتعددة، ومن الأديان المختلفة وحتى المعطيات البشرية. وفي نظرنا أن فرضية هذه الرؤية، تكمن في لابدية الأخذ بكل ما يسهم في التقليل من آلام البشرية، وهو كل ما من شأنه أن يقدم بالفعل حياة أفضل للشخص في العالم المعاصر.

في مقابل هذه الرؤية هناك رؤية أخرى مطروحة وهي في الواقع بديلة للرؤية الإلتقاطية؛ لان الرؤية الإلتقاطية تعتمد الأخذ بكل ما هو مفيد من أي مصدر كان. وفي الرؤية البديلة، النظر إلى الدين نظرة منهجية؛ وهو عبارة عن المنظومة التي تكون جميع أجزاءها ذات معنى حينما تنضم ككل إلى جانب بعضها. والنظام الذي يتم تشخيص النفع من عدمه في تعاليمه إنما هو يكون في ضوء المقارنة مع الكل؛ ولايمكن أخذ كل قضية بمفردها والحكم عليها فقط. وكل

(1) مصطفى ملكيان، الإشتياق والهجران: 119.

(2) المصدر السابق: 318.

قضيـة لابـد مـن اخضاعها للبحـث في ضمـن منظومـة التعاليـم الدينية. ففـي ضـوء هذه الرؤيـة لايمكن خلط الأمر غيـر الديني بالأمـور الدينية، ومـن ثـم السـعي لإيجاد حل جديـد؛ لأنّ القضايـا الدينية إنمـا يكون لها معنـى مع ضـم بعضها إلـى بعض.

والتسـاؤل المطـروح أمـام الإتجـاه الإلتقاطـي: هـو كيـف يمكـن الجمـع بيـن تعاليـم مختلفة مـن أديـان مختلفة ومشـارب بشـرية، ومن ثـم عـرض منظومة منسـجمة ذات معنـى؟ خصوصاً مـع ملاحظة أن كل مسـألة فـي النظـام الدلالي الذي وجـد إنما يكون لها معنـى عند ارتباطها مـع بقية أجـزاء النظام الأخـرى، فكيف يمكن عزل مسـألة عن منظومتها الدلاليـة ووضعهـا إلـى جانـب تعاليـم أخرى هـي بدورها أيضاً تشـكل منظومـة معنويـة أخـرى، في سـبيل الوصـول إلـى مجموعة منسـجمة؟ وعلـى سـبيل المثـال أن التعاليم فـي الأديـان الإبراهيميـة، والحاصلة في إطـار المواجهـة مع إلـه شـخصي كيـف يمكـن أن تصبـح ذات معنـى عنـد ضمهـا فـي مجموعـة تعاليـم الأديـان الشـرقية التـي لامجـال للإله الشـخصي فيها؟.

إن مسـألة المعنـى إنمـا تكتسـب أهميتهـا حينمـا تكـون المعنوية فـي نظـر صاحـب النظريـة هي عصـارة جميـع الأديـان[1] وهـو الإدعاء الـذي لادليـل لإثباتـه أصـلاً بحسـب تتبـع الكاتب.

النظرة التعبدية إلى الدين

مـن أجـل تقييـم المنظومـات التـي لهـا جنبـات مختلفـة، نحـن بحاجـة إلـى مراجعة لجميع زوايـا تلك المنظومة، وبما أن الدين يُشـكل

(1) مصطفى ملكيان، الإشتياق والهجران: 277.

منظومة من التعاليم والطقوس لها تأثير على جوانب مختلفة من الحياة الشخصية والإجتماعية للأفراد، فله أبعاد متنوعة. إن بحث هذه المنظومة العظيمة للدين من بُعدٍ واحد تُعد منهجية خاطئة. وبعبارة أخرى النظرة الأحادية للدين وملاحظة كل المنظومة الدينية فقط من وراء نظارات العقلانية لايعطي لنا تصوراً صحيحاً عن الدين؛ وقد حصل نظير هكذا تقييمات بعين واحدة عن الدين في القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال نظرة ماركس للدين من زاوية العلاقات الإقتصادية فحسب، ولذا عندما لاحظ بعض زوايا الدين من الطبيعي أن تكون أحكامه على المنظومة الدينية - مع ملاحظة عدم كفاية معلوماته - غير صحيحة. كذلك فرويد حيث يفهم الدين على أنه نوع اعتقاد نابع من فقدان التوازن العقلي. ومع هذه النظرة الأحادية لن يملك تصوراً صحيحاً عن الدين وبالنتيجة لايكون تقييمه للدين صحيحاً .

يمكن أن يُقال: لا طريق لنا في مراجعة الأديان إلا من طريق النظرة الخاصّة، ومن ثم كل محقق ومفكر مضطر لسلوك اسلوب تحقيقي واتخاذ موضوع خاص به، ومن الطبيعي هذا ما يضطره للتحقيق في بعض أبعاد الدين وترك الأبعاد الأخرى.

وفي مقام الإجابة على هذا الإدعاء: لابد من التذكير أنه وإن كان التحقيق في كل أبعاد الدين بوصفه منظومة واحدة غير ممكن ويحتاج إلى تحقيق كل مورد (تجزيئي) فمن الطبيعي أن تتلاشى المنهجية عندنا، لكن لابد من الإلتفات إلى هذه النقطة وهي أن حصيلة نتائجنا من البحث عن جزء من الدين، منطقياً لايمكن أن

تعمـم علـى كل الديـن ولا تكـون أرضيـة لإعطـاء حكم كلـي للمنظومة الدينيـة ككل؛ لأن نتائجنا عـن بعـض مـا تـم تحقيقـه أيضاً تحتـاج إلى مقارنـة مـع العناصـر الأخـرى للمنظومـة الدينيـة حتـى ينتـج لنـا إدراكاً صحيحـاً عـن الدين.

مـع ملاحظـة مـا ذكـر سـلفاً، ومـن أجـل تحقيـق وتقييم دينـاً ما وقبولـه أو رفضـه، نحـن بحاجـة إلـى تحقيـق كل المنظومـة، والنظـرة الأحاديـة لاتعطينـا انطباعـاً وتصـوراً كامـلاً عـن الديـن.

نتائج البحث

إن نظريـة العقلانيـة والمعنويـة واحـدة مـن النظريـات المطروحة فـي مجـال الديـن والحداثة، فهي من هـذه الزاوية تحظـى بالتقدير. وفي بلدنـا باعتبـار أن الأكثريـة فيه هم مـن المتدينين، ومن زاويـة أخرى كل يـوم يدخـل فضاءً جديـداً من الحداثـة، يُعـد التبادل الفكـري في مجال الديـن والحداثـة واحـداً من أهـم وظائف المراكـز العلمية فـي البلد.

نظريـة تحـوز على هكـذا قدر مـن الاهتمام، وقـد طرحت مطالب جديـدة فـي الفضـاء العلمـي للبلـد، باتـت العقلانيـة والمعنويـة تواجـه الباحثيـن بتسـاؤلات جديـدة، سيسـهم البحـث والتحقيق فيها فـي إغناء أبحـاث المحققيـن بشـكل كبيـر. فـإن البحـث فـي مسـائل مـن قبيـل العلاقـة بيـن الديـن ونفسـية الأفـراد، العلاقـة بيـن العناصـر التأريخيـة والمناطقيـة للأديـان العالميـة، الإسـتفادة مـن عنصـر العقلانيـة في فهم الديـن، وموضوعـات أخـرى. وإن كان طـرح نظرية العقلانيـة والمعنوية فـي الفضـاء العلمـي للبلد سـيتناول بعـض المطالـب، لكنه سيسـهم في تنميـة البحـث العلمـي لمباحـث أخـرى أيضاً.

ومـع مـا تحويـه هـذه النظريـة من مزايـا؛ لابد مـن القـول أن هذه النظريـة قـد اخفقـت في مدعييـن أساسـيين طرحتهما:

المدعـى الأول: عـدم امكانيـة اتبـاع الديـن التقليـدي فـي العالم الحديـث؛ لتعارضـه مع الحداثـة. وأهم مدعـى للنظرية وقع محـلاً للنقد فـي هـذا المجـال هـو التنافي بيـن العقلانيـة والتعبد.

المدعـى الثانـي: طـرح فهم جديـد تحت عنـوان المعنويـة، وهو أيضـاً قـد اخفق فـي إبـراز طريق نحـو أهـداف النظرية.

وقـد تعرّضـت المنهجية التـي طرحتهـا النظرية للمعنويـة وكذلك لتفسـير العلاقـة بيـن العقلانيـة والمعنويـة، إلـى انتقـادات وتسـاؤلات جـادة. كمـا أن التركيـز البليـغ علـى عنصـر العقلانيـة – مع فرضيـة تأثر الفـرد بشـدّة فـي معتقداتـه بعوامـل نفسـية (سـايكولوجية) – وأيضـاً النظـرة الأحاديـة للدين، كانـت من جملة المسـائل التي تواجـه النظرية. وفـي النهايـة تُعـد مسـألة الدلالـة والمعنـى لمنظومـة التقاطيـة، من أهم التحديـات التـي تواجـه النظرية[1].

(1) مـن المشـكلات التـي تواجـه نظريـة العقلانيـة والمعنويـة، هـي أن صاحـب النظريـة المحتـرم، لـم يطـرح النظريـة مدونـة فـي كتـاب، وهـذا مـا سـبب ذكـر مطالـب متعـددة مـن قبلـه طيلـة الثلاثة عشـر عامـاً الماضية – جاءت على شـكل كلمـات ومقابـلات – وهـذه المسـألة إنمـا تكـون ذات أهمية وأكثر جديـة عندما يعتـرف بنفسـه بطـرو التغيير علـى بعـض المـوارد مـن نظرياتـه؛ هي فـي الواقع تغييـرات لاتحصـل بسـهولة لمـن يحقـق فـي نظرياتـه، ولحسـن الحظ قـد وعد فـي كلمـة له عـن العقلانيـة والمعنوية بعد عشـرة سـنوات بتأليف كتـاب في هذا المجـال ليجيـب علـى منتقديه.

المصادر

- فنائي، أبو القاسم، العلاقة بين الدين والحداثة، قانون رقم6؛ 1385ش (2006م).
- مصطفى، ملكيان، الإنسان التقليدي، الإنسان الحداثي ومسألة التعبد؛ قانون رقم 17؛ 1387ش، (2008م) «ب».
- ملكيان، في البحث عن العقلانية والمعنوية، صحيفة مهر، رقم3، خرداد (الشهر 3) 1389ش، تحرير كلمة العقلانية والمعنوية، بعد عشرة سنوات، قاعة الشيخ الأنصاري، جامعة طهران 28\2\1389ش (2010م).
- ملكيان، الدين والمعنوية والعقلانية آبان (الشهر 8)، رقم 144 (بهمن(الشهر 11) 1381) (2002م) نقلا عن موقع نيلوفر:
- http://neeloofar،org/thinker/mostafamalekian/dialogue/132 -2012-11-01- 15 - 00 – 24.html
- ملكيان، الموائمة بين المعنوية والحداثة، صحيفة الشرق، 25\5\1385ش (16\8\2006).
- ملكيان، المعنوية والعقلانية حاجتنا المعاصرة، «بازتاب انديشة» صدى الفكر، رقم 22؛ قم المقدسة، مركز التحقيقات الإسلامي للإذاعة والتلفزيون، 1380ش (2001م).
- ملكيان، طريق إلى التحرر، طهران؛ نشر بنظرة معاصرة، 1390ش (2011م).
- ملكيان، الإشتياق والهجران؛ طهران: نشر بنظرة معاصرة، 1387ش؛ (2008م) «ألف».

- ملكيان، المعنوية جوهر الأديان، (1-2) التقليد والعلمانية؛ طهران: الصراط؛ 1388ش (2009م).
- نصري عبد الله، الحوار المعاصر، نظرة على بعض الإتجاهات الفكرية المعاصرة، طهران؛ مكتب نشر الثقافة الإسلامية: 1382ش (2003م).
- هاشمي محمد منصور، المفكرين المُحدَثين؛ التنوير الديني من شريعتي إلى ملكيان، طهران؛ نشر كوير، 1387ش (2008م).
- جميع هذه المصادر المعتمدة باللغة الفارسية.